العيـــــد !

للسيدة الفاضلة منيبة الـكيلانى

تمر أيام العام مسرعات والناس فى شؤونهم الخاصة من زحمة العيش وتلمس الرخاء ، والضيق والرغبة فى الفرج ، والسقام وأمل الشفاء ، ويأتى العيد فيكون بين العيد ووسادته ليلة العيد حديث ونجوى ؛ فبين عيد ووسادته من ثورات النفس ودوار الرأس وجهد الخاطر الـكليل ما بين عيد ووسادته من بسـمة الأمل وهشة الرجاء وتطلق الوجه . ولقد تنحبس العبرة طول العام من نكبة نازلة فلا ترسل إلا فى مقدم العيد مطلقة غير مقيدة ، فتأخذ فى العيد روعة وشكلا ليسا من شأنها ولا من شأن الأيام الأخرى . وهكذا تصبح جهشة العيد جهشة مزلزلة ، وتغدو دموع العيد جد حرار . ولقد تبقى البسمة خامدة كابية طوال العام أيضاً لا ترى ما يرسلها مجلوة مشرقة حتى يأتى العيد ، فإذا البسمة تاج على الثغر — كالجديد من الأكسية — تتحدث للوسادة عن النصر الذى أحرز ، والعمل الذى أنجز

هذه بسمة العيد ليست من ابتسامات العام ، وهذه جهشة العيد ليست من دموع الحول ، إنما هى فى الحالتين محصّل ما فى العام كله من شدة ورخاء ، وعذاب وهناء ، وعزة وشقاء ، تجتمع فى العيد كما تجتمع أضغاث المنى على الثغر الحالم ، وأضغاث المال فى ثوب جديد وكساء جديد ، كذلك مشاعر النفس وأضغاث خويصاتها تتجمع لتبرز فى العيد فى فرح جديد وحزن جديد .

وضجعة الإنسان ليلة العيد وسهوم فكره ، واتساع مخيلته وشرود ذهنه ، تتسع وتقصر ، وتكبر وتضيق ، بمقدار ما توافر لديه من أسباب وعلل تجتمع كلها فى حقيقتين أساسيتين فيهما جواب هذا التساؤل الذى يدور على الخاطر ويلح بالنفس : وهو لماذا تنطوى نفس وتبتهج للعيد ، وتأسى نفس وتضيق له ، وتذرف فيه الدمع ويحلو لها الصمت والأشجان ؟

تتسع مادة الحوار بين المرء ووسادته ليلة العيد بسمة الجواب على هـذا السؤال . والواقع أنه سؤال فى منتهى الوجاهة وخفة الظل : لماذا تأسى نفس وتفرح نفس وليس بين النفسين إلا قرب وأوجه شـبه ... هذه نفس تذرف الدموع ، وهذه نفس توزع الابتسام ؟

العيد يفرض على العيدين مشاعر خاصة هى التى تعلل هذه الظاهرة ... ظاهرة الحزن الجديد والفرح الجديد ...

العيد يقوم من جهة بدور المدسة الـكبيرة تتراءى ما بعدها من المرئيات كباراً غلاظاً باذخة الأطراف شامخة الهامات ، ويقوم العيد من جهة أخرى بعقد مقارنات سريعة عاطفية بين المرء والمرء وبين المرء ونفسه ، فمقارنة بين غائب ومصيب ، وبالغ ومقصر ، ومقل ومكثر ، وغنى وفقير ، وجائع وشـبعان ، تنتهى بهذا الإحساس الذى نحن بصدده من الشعور

يصاب الإنسان بما يصاب به من نوائب هذه الحياة ووعثائها ، فإذا وافى العيد ، وكانت النعمة التى لديه لا تزدهيه فى سائر الأيام ازدهته فى ذلك اليوم ، لأنه ينظر إليها من خلال العيـد فيراها كبيرة باذخة فيرتاح لها ويبتهج ، أما إذا كان ما بين العيد والعيد حزن وألم ، فإن هذا العيد لن يُرى صاحبه إلا ألماً كبيراً .

أما المفارقات ، فأمرها أشد ووقعها أمض ، مقارنات يعقدها العيد بين شخص وشخص ، وبين شخص ونفسه ، فى زمنين مختلفين ، هذان أليفان آض ما بينهما كلاماً فى غير دقة ، وسلاماً فى غير رقة . وهذه قلوب كانت تحن ، فأضحت تئن . وهذه مسكينة كانت فى العيد السالف فى كلاءة أبوين ، فصارت فى هذا العيد سطراً فى كتاب اليتم ... وهذه أم كان لها فى العيد السابق فتى يملأ دنيا أحلامها بأشتات المنى فاحتسبته وأقامت تندب ذكراه . وهذا أب اغتالت المنية وحيده فتركته لا يقدر على شىء ، وهذا فتى فى ميعة الصبا كان وثيق التركيب جميـل المظهر ، ولـكن العيد وجده فى مخالب المرض ينفث نفسه وينتظر رمسه . وهذه أمـة كانت بالأمس الدابر تملأ حيزاً ومكاناً ينظر إليها النـاس أمة فأصبحت أمَـة ... كل هذه مقارنات يأتى بها العيد بين شخص ونفسه فى زمنين مختلفين تملؤها غصة وشكاة ودموعاً .

ولقد تكون المقارنة بين شخص وشخص ، فينظر الطفل الفقير وقد عرف الفقر وعرفه طوال العـام ، ينظر إلى الثوب المتواضع الذى أنفقت فيه أمه جهد شهر فى الخدمة ... ويقارنه بالثوب المترف الفاخر الذى يرتديه غيره من الأطفال فيستشعر

لأول مرة فى العام خفقة الألم . وينظر الجائع وقد عرف الجوع وخبر بلواه إلى الشبعان الذى عرف التخمة وخبر بلواها ، فيتاله من مقارنة العيد ألم جوع وألم غضاضة ، وينال الآخر لذة شبع ولذة مكاثرة !

وينظر اليتامى فى الملجأ إلى هياكل أجسادهم ومعدهم ، وقد كانت ثياب هذه الهياكل طول الحول قطعاً من فضل المحسنين ، وهذه المعد طول العام وعاء للخيرات ... ولكن العيد يرسل إلى هؤلاء مقارنة بينهم وبين سواهم ممن رداؤهم قطعة واحدة من يد محسنة واحدة ، فتأسى الأنفس وتذكر فى سبيل المقارنة ما فاتها .

هكذا تتقد اللوعة ، وهكذا تزداد الشكاة فى العيد ، وأولئك الغلف قلوبهم لا يعلمون أن فى الناس من يذوق طعم الموت وهو حى . وهكذا يجد الواحد منا كيف تتعاقب الأيام بالسراء والضراء فيفيد من هذه وهذه ، أن الأمور لا تقيم على حال ، وأن وراء الشدة رخاء ، وبعد العناء عزاء ، وأن العبد إن أساء فقد يحسن ، وأن الصبر أجدر من حلم ضائع ورشاد سليب وفؤاد هواء ، ثم يجد الواجد فوق ذلك — وقد خبر النعمة والنقمة — كيف يسأف اليد المحسنة والساعدة المعفة ، وينتزع من أحاسيس نفسه وخلجاتها ما يشغف به القلب الذى أضاع الشغاف ، والفؤاد الذى برحت به النوب وتخارمته الأوصاب ، وكل إحسان فى العيد عيد فى الإحسان ، فالمصافحة والابتسامة والقبلة والدرهم وبطاقة العيد والهدية والزيارة والتفقد والتسآل وعيادة المريض والإشراف على موطن الألم من التألم ، وكفكفة دمعة الباكى ومسح رأس اليتيم كل أولئك كجرعة الماء فى المهمه الفقر . . وإن كانت ماء فهى لذى غلة به إليها تحنان ، وله إليها تشوف ونزوع ؛ وهى فى مفهوم الصحراء الهلكة ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث . والقلوب بالنة ما بلغت من الاختلاف والتمايز لا يؤلف بينها ولا يجمع شتاتها ولا يجعل منها وحدة رصينة مثل رباط المشقة وصلة المشكلة ، فلقد يصرف فى سبيل توثيق صلة من صلات الود ما يصرف من وقت ومادة . ثم لا تتوثق هذه الصلة كما تتوثق أخرى لم يصرف فيها إلا تفقد وتسآل واشتراك فى محنة .. وهذا العيد يتيح هذه الفرصة ويمكن لمن يريد أن يشترى قلوب الناس . أن يشتريها بأثمان بخسة لا يستطيع أن يحصل عليها فى الظروف الاعتيادية ، لا تفى هذه الفرصة إلا مرتين فى العام توضع فيهما هذه القلوب البشرية الخفاقة بالمزاد العلنى يشتريها من كان لديه المال الكافى من العطف والرعاية والحنان ، وإنه فى الحق لنصيب عظيم أن تشترى قلباً بابتسامة وقلباً بتفقد وقلباً بمصافحة وقلباً بهدية وقلباً بدمعة وقلباً بزيارة ... وهذه القلوب مهما ضعفت ومهما كانت ذاوية نحيلة ، ومهما كانت منذرة بالفناء فهى تدوم على الأقل خفاقة للعيد القادم يوم تعرض قلوب جديدة بآمال جديدة وآلام جديدة تبتنى شارياً جديداً بعطف جديد وهكذا ...

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح

هذا نداء يجسمه العيد .. وفى الطوق والإمكان أن يلبيه كل ذى كبد فيعود بكبد صحيحة وكبد مصححة يبسم لها لأنه صححها وتبسم له لأنها تعترف بالفضل ، وما بين الابتسامتين من معانى الجمال ما لا يقوم له شىء ويعود معنى ...

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح

معنى جديداً كالعيد الجديد بين كل اثنين من العيدين مؤداه :

كلى بكلك ممزوج ومتصل والحادثات التى تؤذيك تؤذينى

ليكن مقياس العيد مقياساً أكبر من مقياس المادية .. فلا تقل وقد أدبر العيد كم ثوباً جديداً لبست ، بل قل كم قلباً اشتريت ، وكم كبداً صححت ، وكم ثغراً بالابتسام ملكت ، وكم دمعة حارة من دموع العيد كفكفت . فذلك أقمن بالإنسانية وأدعى للفخر وأجلب للبهجة وأكثر اتساقاً مع معنى العيد .

صفية الكيلانى

ظهر حديثاً :

الطبعة الجديدة المزيدة من كتاب

فى أصـــول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً